هاوية الملح والأسطورة الناقصة

إلياس خوري

يستطيع الأدب، أن يقول، ما لا تقوله الكتابات الأخرى.

هذه هي مُفارقة العالم الثالث، خاصة حين يعيش في منعطف الهاوية. والهاوية التي نتحدث عنها، ليست مُتخيلاً غرائبياً، إنها هاوية حقيقية مصنوعة من الدم والحقد والدمار.

الهاوية التي نحن أمامها، مالحة كالصحراء، وشاسعة كالنفط، ومُخجلة كالكلمات.

ولكن لماذا الأدب، والأدب هو أحد أشكال الواقع التاريخي، فإذا كان الواقع عقيماً ومتكلساً، فكيف يستطيع النص الأدبي أن يتجاوز العقم، ويفتح ثغرة في جدار الحلم؟.

هذه هي مُفارقة الأدب.

وحده الأدب يستطيع أن يفتح هذه الثغرة، لكنه عاجز عن تحويلها إلى مسار. أي أنه حين يقترب من خلخلة القناعات والبُنى السائدة، لا يستطيع إلا أن يكتب مؤشراً.

أما الحائط فيكسره الناس.

في هذه المفارقة الداخلية، نعيد قراءة أدبنا الحديث. ونكتشف في لحظة التحولات الكُبرى، كيف لعب النص الإبداعي دور العتبة. «رجال في الشمس» لكنفاني كانت عتبة «وأنشودة المطر» للسيّاب كانت عتبة، و«أغاني مهيار» لأدونيس، و«لن» لأنسي الحاج، و«أحمد الزعتر» لمحمود درويش و«الرغيف» لتوفيق يوسف عواد، و«أحلام المدينة» لمحمد ملص، وقصائد سعدي يوسف، وإلى آخره. . . .

هذه العتبات، كانت لنا نوافذ على الحرية.

لكننا اليوم أمام الهاوية.

تعالوا نسأل «مدن الملح».

كيف نقرأ الملح، وكيف تتكون المدن المالحة وسط الصحراء التي يعصف بها الحقد الأميركي، والسفاهة الكولونيالية، وهي تلبس ثياب الحضارة والديمقراطية والحرب الإلكترونية، وحرب النجوم.

ماذا يقول الملح، وسط الهاوية؟.

و«مدن الملح» هو عنوان رواية عبد الرحمن منيف التي يخبرنا فيها عن تحويل الملح إلى مدن، في زمن النفط، وعن «التيه» الذي صاحب اكتشاف الآبار في الجزيرة العربية، و«التيه» كما يرويه منيف، هو مزيج من الأسطورة والواقع، الأسطورة في شخصية «متعب الهذال» تحاول أن تقاوم الغزو الأميركي النفطي «لوادي العيون» والواقع هو الحقيقة التي يفرضها الأميركيون من خلال حلفائهم من المشايخ والأمراء، عبر تأسيس ميناء «حرّان» وإقامة المدن الجديدة، وتحويل الملح إلى مدن للقهر والقمع.

في المُعادلة التي صاغها منيف في «التيه»، نكتشف العلاقة بين الأسطورة والواقع، بوصفها الشرط الضروري لمرحلة تأسيس الهيمنة الاستعمارية على الجزيرة العربية. نحن في واحة اسمها «وادي العيون». فجأة تتحول الواحة إلى أرض يبحث فيها الأميركيون عن أشياء غريبة. «متعب الهذال» يكتشف منذ البداية، بحدس رؤيوي، أن الكارثة قادمة. فيبدأ بالدعوة إلى مواجهة هؤلاء الغرباء، غير أن دعوته لا تلقى أي صدى، يصبح صوتاً وحيداً صارخاً، ثم حين يتمكن الأميركيون من «وادي العيون» تبدأ عملية تدمير القرية وجرفها، وطرد سكانها، بعد أن دُفعت لهم تعويضات رمزية. أمام هول الكارثة يرحل «متعب الهذال» إلى الصحراء، تاركاً زوجته للبكم، وأولاده للعمل في منشآت الشركة النفطية. ومنذ لحظة رحيله يتحول إلى ما يشبه الأسطورة، إلى فارس مُحَجَّب بالليل والرمال. يهاجم الأميركيين ويحرق منشآتهم. لكنه فارس أسطوري. أي أن مقاومته لا تتعدى الحنين إلى ماضٍ محكوم بالزوال. «متعب الهذال» ليس بطلاً، إنه أحد أشكال التيه الذي فرضه على الناس هول التقدم التكنولوجي الأميركي. الذي اجتاح بلادهم.

في مواجهة أسطورة «متعب الهذال» تظهر حقيقة القوة، في مدينة «حرّان» التي أسسها الإميركيون، وحوّلوها إلى نموذج سوف تتأسس عليه عشرات المدن. «فحرّان» التي تحولت إلى مرفأ لتصدير النفط، تنقسم إلى ثلاث مدن: حرّان الأميركان وحرّان العرب وحرّان الأمير. وإذا كان الفرق بين حرّان العرب بأزقتها ورثاثتها، وبين حرّان الأميركان ببرك السباحة التي فيها وغرفها المكيّفة، يبدو شاسعاً، فإن المُفارقة هي قصر الأمير. في القصر، نشاهد أميراً مدهوشاً وعاجزاً، يتفرج على الاختراعات العلمية، من المنظار إلى الراديو إلى التلفون، ثم يصاب بشبه مسّ من الجنون، وهو يحمل آلة التلفون ويصرخ فيها.

حرّان الأمير، هي الوجه الثاني من الأسطورة. الأمير هو الأسطورة المُضادة في «مدن الملح» إنه الصورة الكاريكاتورية للسلطة التي أعطت الأميركيين حق استباحة الأرض بحثاً عن النفط. ثم تحولت إلى مجرد أداة بأيدي الأجانب، وإلى مجموعة من المهرّجين المهووسين بالمال والتكنولوجيا، المال يسمح لهم باستيراد الآلات، والآلات تتحول في أيديهم إلى ما يشبه الأدوات السحرية التي لا

يفقهون عنها شيئاً، فيقودهم هذا إلى مصيرهم المحتوم، أي إلى الخَبَل والجنون.

هذه المعادلة المُرعبة التي رسمها منيف لبدايات هذا القرن، تكشف لنا التِّيه الكبير الذي دخلته الجزيرة العربية مع اكتشاف النفط والدخول الأميركي. فبدل أن يأتي التقدم العلميّ والتكنولوجيّ ليهز الجزيرة من سُباتها الطويل، أتى ليحول هذا السُّبات إلى نوم أبدي المقاومة كانت مستحيلة، وصورة المقاوم تحوَّلت إلى أسطورة في المتخيّل الشعبي. و«حرَّان» قامت كحقيقة تؤبّد الأوهام، جاعلة من حرَّان الأمير، أي من الأسطورة المضادة، حاجباً بين حرَّان العرب وحرَّان الأميركان.

الشخصيات العربية في الرواية تتأرجح بين الغضب الجنوني، كما في شخصية «متعب»، وبين الخبل، كما سيصير إليه مقاول العمال «ابن الراشد»، وبين الصمت كما هو حال زوجة «متعب»، وشبه الغيبوبة والاختفاء، كما سيكون مصير «فواز» نجل «متعب» الأصغر الذي يتحول إلى عامل في «حرَّان».

هكذا. يأتي الاجتياح النفطي ليقوم بتأسيس نمط جديد من العلاقات الاجتماعية، قائم أساساً على تغييب السكان المحليين، وعلى تحويل السلطة المحلية إلى خادم مطيع لإرادة الشركة الأميركية.

ليس هدف هذا المقال تقديم تحليل نقدي لرواية عبد الرحمٰن منيف. فالرواية شهادة نادرة عن عالم «مدن الملح» الذي تأسس في بداية هذا القرن. والصورة التي تقدمها لنا الرواية هي مزيج من التسجيل والأسطرة. في هذا المزيج يبدو الواقع مستحيلاً، وتصبح الأسطورة واقعية. أي أننا أمام اجتياح لاعقلاني بأدوات عقلانية. غرب مدجَّج بالمعرفة، وأرض يمتزج فيها السبات بالقمع المتوحش.

ما أريد أن أصل إليه هو الصورة الحالية لمدن الملح، فبعد أن احتمت بالدرع الأميركية، ها هي تتحول إلى نقطة انطلاق للعاصفة الأميركية على المنطقة العربية بأسرها. أي أن هذه المدن الملحية التي كانت وعاء للتدخل الأميركي في المنطقة، وحافظت مع ذلك على العلاقة المُلتبسة بين الأسطورة والجهل، أي على نمطها الاجتماعي الثقافي القديم، عبر معادلة دقيقة وهشَّة، تتحول اليوم إلى نقطة انطلاق لإحدى أكبر الحملات العسكرية في التاريخ، وإلى منطقة تحتشد فيها القوات الأميركية وقوات دول النظام الدولي الجديد، بلغاتها وعاداتها وقيمها المختلفة.

فهل تستطيع مدن الملح أن تحتمل هذا الجديد، أم أنها ستنهار تحت ثقل الطائرات التي أتت لحمايتها؟.

عودة إلى البداية، أي إلى ما قبل حادثة الكويت، تكشف لنا أن غابة الملح التي أقامها الأميركيون بالباطون والحديد ومكيّفات الهواء، كانت مجرد مدن كرتونية، تفترسها الطبيعة القاسية للجزيرة العربية، وتحول كل إنجازاتها إلى وهم وسراب. لقد تم تدمير الواحات، كما جرى في «وادي العيون»، ليتم استبدالها بواحات سرابية تزيد العطشان عطشاً. أي أن هذه الغابة المالحة من مدن الباطون والثروة الوهمية، ليست سوى ستار يحجب حقيقة السراب الذي أسسه الأميركيون، وحاولوا تحويله إلى حقيقة. وهو حين حاول أن يلعب دور الحقيقة بعد هزيمة مصر الناصرية عام ٦٧، عبر تحويله لمدن الملح إلى عاصمة القرار العربي، فإن هذا جعل العالم العربي بأسره غابة من الملح والقمع والجنون.

لكن الأمور اليوم لا علاقة لها بالبداية.

«حرَّان» الأمير هي اليوم أمام مأزق مزدوج.

مأزق داخلي، قائم على التناقض الصارخ بين أيديولوجية السلطة وبين هذه الحرب التي تقودها الولايات المتحدة. فجأة تتحول أرض نجد والحجاز، لا إلى أكبر ترسانة عسكرية في القرن العشرين وحسب، بل تتحول أيضاً إلى مكان تجتاحه قِيَم الغرب بكل جوانبها. من بث الأخبار على التليفزيون بشكل مباشر، إلى النساء وهن يقدن السيارات العسكرية، إلى آخره...

هذا المأزق الداخلي ليس هامشياً. فهو الكأس المرَّة التي حاولوا تجنُّب شربها زمناً طويلاً، عبر ادعائهم الاستقلال. فجأة انهار الاستقلال وانهارت القِيَم الأيديولوجية والسلفية، وتحولت حرَّان إلى جزء من أميركا.

ومأزق خارجي، قائم على التناقض الصارخ بين واقع حرَّان التي تعيش داخل نظام قرون وسطوي، قائم على القمع المُطلق، وبين ادعاءات القوى الأطلسية بأنها في عملية عاصفة الملح الصحراوي هذه إنما تقاتل من أجل الديمقراطية والتحرير، وحق تقرير المصير!.

يبدو هذا المأزق خافتاً اليوم، بفعل الكذب الإعلامي والأخلاقي الغربي. لكن غداً، عندما ستنقشع غيوم أشعة اللايزر التي تعمي عيون المواطنين الأميركيين والأوروبيين، فإن هذا التناقض في القيم قد يقود الغرب إلى عملية تجميل قسرية لمدن الملح، عبر إحداث تغييرات جذرية فيها تلائم العصر الديمقراطي الذي تريد أميركا فرضه على العرب!.

بين هذين المأزقين تبدو «عاصفة الصحراء»، وكأنها لا تهب في اتجاه واحد، إنها آلة تطحن في اتجاهين متعاكسين. لذلك فهي حين تهبّ اليوم باتجاه العراق فإن رذاذها المدمر قد يصيب قواعد انطلاقها، وقد يكون أثرها على هذه القواعد مباشراً وأقرب إلى الاحتمال من أثرها على الخصم الذي تحاربه.

ماذا تستطيع «مدن الملح»؟.

سوف يتساءل الاستراتيجيون الغربيون طويلاً عن سبل إنقاذ «مدن الملح» من مصيرها الذي يدفعها إليه الغرب دفعاً، فهذه المدن، وهي تصاب بالخبل أمام التقدم التكنولوجي المذهل الذي ينطلق من أرضها، قد تنفجر من الداخل.

أما السؤال الذي يمكن أن نطرحه على رواية عبد الرحمٰن منيف، فهو سؤال عن علاقة الأسطورة القديمة بالأسطورة الجديدة.

في الرواية يختفي «متعب الهذال» في الأسطورة. الأسطورة كانت خيار منيف الوحيد، فبطله لم يكن بطلاً مُكتمل البطولة. والبطل الناقص لا يملك سوى حضور أسطوري ناقص، إنه نصف أسطورة، بل هو أقرب إلى أبطال الحكاية الشعبية، من حيث

علاقته الغامضة بالأشياء التي تحيط به، وبالقدر الذي يأخذه إليه. هذه الأسطورة الناقصة تنعكس أيضاً على الأسطورة المضادة، أي على أمير حرَّان. لذلك، ربما، يفقد الخيط الأسطوري الذي بدأ في الجزء الأول من «مدن الملح»، لمصلحة السرد الواقعي لحياة الطبيب صبحي المحملجي، والعائلة الحاكمة، في الأجزاء الأربعة اللاحقة من الرواية.

هنا نستطيع الوصول إلى نقطة مثيرة، عبر مقارنة أسطورية منيف بالواقعية الأسطورية في أدب أميركا اللاتينية. ففي أدب ماركيز تبدو الواقعية الأسطورية مكتملة الملامح. أسطورية «ماكوندو» هي ما قبل تاريخ العالم، إنها تستمد واقعيتها من مستقبلها، من العالم الحديث الذي تُشكل هي ماضيه التاريخي ولاوعيه. أما أسطورة عبد الرحمٰن منيف فغير مُكتملة، فهي ليست جزءاً من تاريخ العالم الحديث، أي من تاريخ الغرب، بل هي هامشه المَنسي والمحذوف. لذلك يتلاشى الخيط الأسطوري الذي صِيغ في الجزء الأول من الخماسية، ويتحول إلى واقعية طبيعية تغوص في اسم الشخصيات، الظلال التي تبقى، رغم واقعيتها الشديدة، وكأنها ظلال للحدث التاريخي الذي يصنع في الجهة المقابلة من العالم.

الأسطورة تنفصل عن واقعية الواقع، هذا الانفصال هو نتيجة انفصال الماضي عن المستقبل. الماضي لا مستقبل له، وهذا المستقبل لا علاقة له بذلك الماضي. من هنا، تصبح الإشكالية الأسلوبية في «مدن الملح»، إشكالية مؤقتة وغير مكتملة، مؤقتة لأنها تستعير الظلال الواقعية في لحظة يغيب فيها الواقع عن المُدرك، وغير مُكتملة لأن اكتمالها مشروط باكتمال الحركة الاجتماعية - التاريخية، أي باكتمال الصراع على النفط وحوله.

أسطورة «متعب الهذال» تتحول اليوم إلى حكاية موازية للأسطورة التي تتأسس من خلال التكنولوجيا الغربية المتوحشة التي تجتاح الصحراء. وبين الأسطورتين يدور اليوم صراع دموي، التكنولوجيا تريد أن تبتلع «متعب الهذال» من جديد، كما ابتلعه النفط في الماضي، و«متعب» يريد أن يعود إلى «وادي العيون»، لا لكي يستعيد الواحة المدمرة، بل لكي يمسك بالثروة، ويعيد خلق حياته من جديد. وعندها تكتمل أسطورة الماضي بوصفه ذاكرة للحاضر.

في هذه العلاقة الصراعية بين الأسطورتين يتحدد مسار الكتابة، فالكتابة هي جزء من المسار التاريخي، إنها لا تعبِّر فقط عن اللحظة الآنية، بل تربطها بتاريخ العالم، أي بالمستقبل. وهذا المسار يبرز اليوم من تحت ركام المدن المقصوفة والصحراء المحترقة. أسطورة تريد الاتصال بتاريخ العالم وإدراج نفسها في سياق المستقبل، وأسطورة تكنولوجية تريد حذف أسطورة السكان المحليين من التاريخ وتحويلها إلى فولكلور.

قد يكون عبد الرحمٰن منيف الروائي العربي الأول الذي طرح سؤال علاقة الجزيرة العربية بماضيها ومستقبلها، عبر قراءاته لأتون الهجوم الاستعماري المُتلهف على ابتلاع النفط.

النفط يحترق، فهل يخرج «متعب الهذال» من رماد هذه الحريقة الهائلة؟..

هل يعود «متعب»، أم سينجحون في رميه في كهف النسيان؟.

وهل هذه الرواية التي تُكتب اليوم بالدم في الخليج، هي عتبة رواية الحقيقة؟.

عبد الرحمٰن منيف لا يملك الجواب على هذا السؤال. وجميع الكتَّاب العرب لا يملكونه، لأن الجواب اليوم هو بين أيدي الناس. وفي عيونهم المحترقة. الناس هم المؤلف والبطل في آن. فهل يموت البطل قبل أن تنكتب الحكاية؟ أم أن الحكاية التي بدأت بهذا الموت الأسطوري سوف تتحول إلى مستقبل الحكايات القادمة؟.

عن «السفير» (عدد السبت ١٩٩١/٢/٩)

صدر حديثاً

الذاكرة المفقودة

دراسات نقدية

بقلم

الياس خوري

طبعة جديدة

دار الآداب